

# الآيات البينات

## في عدم سماع الأموات على مذهب الحنفية السادات

تأليف

العلامة نعمان بن المفسر الشهير محمود الآلوسي
رحمهم الله تعالى
( ١٢٥٢ - ١٣١٧ )

حققه وقدم له وخرج أحاديثه وعلق عليه
محمد ناصر الدين الألباني

**الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨**
الطبعة الثانية سنة ١٣٩٩

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقـــدمة المحقق

إن الحمدَ لله ، نحمده و نَستَعينهُ ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأَشهد أَن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد ، فإني في سفرتي الأخيرة إلى ( طابَةَ ) ،[1] آخر محرم سنة ( ١٣٩٨ ) ترددت مدة إقامتي فيها على مكتبة الجامعة الإسلامية ــ على عادتي كلما سافرت إليها ــ لدراسة ما يتجمع فيها من نفائس المصورات ، عن نوادر المخطوطات

---

(١) اسم مدينة النبي ﷺ ، سماها بذلك رب العالمين ، كما في الحديث الصحيح : « إن الله سمى المدينة طابة » . رواه مسلم ( ١١٢/٤ ) ، وفي حديث آخر سماها ﷺ : ( طَيْبَة ) ، رواه الشيخان ، وهو مخرج في « الصحيحة » ( ٢١٨ ) .

الحديثية وغيرها ، المحفوظة في مختلف مكتبات بلاد الدنيا ، وذلك بهمة وجهود فضيلة الشيخ عبد المحسن العباد ، نائب رئيس الجامعة حالياً ، ومن قبله فضيلة العلامة الشيخ عبد العزيز بن عبدالله بن باز ،الرئيس العام الآن لإدارات البحوث العلمية والإفتاء في المملكة العربية السعودية ، جزاهما الله تعالى عن العلم والإسلام خيراً ، ووفقهما وغيرهما من المسؤولين لمتابعة السير في هذا المشروع الهام العظيم، الذي يسهل العسير، ويقرب البعيد ، إلى العلماء الباحثين ، والطلاب المجتهدين ؛ أن يحققوا وينشروا من آثار سلفنا ، ومؤلفات علمائنا ما لم ينشر بعد ، إنه سميع مجيب .

هذا وقد استفدت من مصورات المكتبة المذكورة ، فوائد جد كثيرة ، فاطلعت بواسطتها على مصورات وبعض الأفلام لمخطوطات طالما كنت حريصاً على الاطلاع عليها ، ودراستها ، والتقاط فوائدها ودررها ، وكان من ذلك هذه الرسالة القيمة التي أقدم بين يديها هذه الكلمة ، ألا وهي :

**« الآيات البينات ، في عدم سماع الأموات ، عند الحنفية السادات » .**

تأليف العلامة السيد نعمان ابن المفسر الشهير الجليل السيد محمود الآلوسي .

والواقع أنني لم أكن قد سمعت بهذه الرسالة من قبل ، فلما وقعت عيني على عنوانها في بعض فهارس المكتبة ، أخذ بمجامع قلبي ، وظننت أنها رسالة هامة في موضوعها ، فلما طلبتها - مصورة - لدراستها ، وأخذ فكرة سريعة جامعة عنها ، بدأت أقلب صفحاتها ،وأتأمل في سطورها ، وبحوثها ، تأكدت مما كان بدا لي من أهميتها ! فطلبت أن يصوروا لي نسخة عنها ، لأتفرغ لدراستها دراسة دقيقة إذا رجعت إلى بلدي ، ففعلوا ، جزاهم الله خيراً .

فما كدت أركب الطائرة عائداً إلى دمشق ، حتى اهتبلتها فرصة ، فاستخرجت الرسالة ، وباشرت قراءتها سطراً سطراً ، بروية وإمعان ، مشيراً إلى المواطن التي تحتاج إلى تحقيق أو تعليق ، أو تخريج ، فازددت تأكداً بأهميتها وإعجاباً بها ، وامتلأت شعوراً بضرورة نشرها .

فلما اطمأننت في داري،واستقر فيهاقراري،واسترحت قليلاً من وعثاء أسفاري ،أقبلت عليها محققاً ، معلقاً ، مخرجاً، بقدر يسير من وقتي الذي تساعدني عليه صحتي ، ومشاريعي الأخرى التي لا بد من الاستمرار فيها ، والتي منها « صحيح الترغيب والترهيب» و «ضعيف الترغيب والترهيب »وتحقيق

« الأحاديث المختارة » للضياء المقدسي ، وغيرها . ولما تعمقت فيها قليلاً ، تبين لي أنها مأخوذة عن نسخة سيئة جداً ، وأنها غير مقابلة بأصل المؤلف رحمه الله ولا مصححة ، وقد علمت من بعض الفهارس أن هناك في مكتبة الأوقاف في بغداد نسخاً عدة ، وإحداها بقلم المؤلف نفسه ، فكتبت إلى أحد إخواننا هناك ليرسل إلينا صورة عنها ، فلما تأخرت عني ، مضيت في تحقيق المصورة التي عندي ، معتمداً في ذلك على المصادر التي نقل المؤلف عنها ، إلا ما ندَّ عني منها ، وبذلك تمكنت من تصحيح أكثر العبارات التي أصابها تحريف أو تصحيف أو سقط ، بسبب خطأ الكاتب ، وعدم المقابلة بالأصل . ولم أر فائدة كبرى في الإشارة إلى المواطن التي صححتها لكثرتها ، إلا في بعض الأحيان ، ولكني أشرت إلى الألفاظ والجمل التي كانت سقطت من الكاتب ثم استدركتها ، بوضعها بين معكوفتين هكذا : [ ] ، ونظرة سريعة في هذه المستدركات من القارىء اللبيب تدله على سوء النسخة التي قمت بتحقيقها آملاً أن أكون وفقت إلى إخراجها وفق نسخة المؤلف رحمه الله تعالى أو قريباً منها ، وفي طبعة لاحقة إن شاءِ الله نكون قد وقفنا على نسخته، وصححناها عليها ، ولكل أجل كتاب »

والله تعالى هو ولي التوفيق ، والهادي إلى الصواب .

وقد أضفت إلى ذلك أني خرجت أحاديث الكتاب وآثاره ، مبيناً صحيحها،وضعيفها،وموضوعها ،كما هي عادتي في كل ما أُحققه من الكتب والرسائل ، وعلقت عليه بعض التعليقات المفيدة ، وبخاصة على المسائل والأقوال التي تعرض المؤلف لذكرها ولم يبد رأيه فيها . وترجمت للمؤلفين الذين نقل عنهم مباشرة أو بواسطة ترجمة موجزة ، وضبطت أنسابهم ، وجعلت لبعض مسائله عناوين جانبية بين معكوفتين ، تيسيراً للمراجعة ، وكذلك وضعت له فهارس أربعة إتماماً للفائدة :

أ ــ مصادر الكتاب وتعليقاته .

ب ــ مباحث الكتاب ومسائله .

ج ــ الأحاديث والآثار .

د ــ الأعلام والرواة المترجمين .

وغير ذلك من الفوائد التي سيقف عليها القارىء إن شاء الله تعالى .

هذا ، وبينما أنا ماضٍ في طبع الكتاب ، حتى إذا لم يبق منه إلا الملزمة السادسة ، وهي قد وضعت على الآلة الطابعة ، ألقي إلي ظرف كبير ، فيه نسختان مصورتان منه ،

أرسلها الأخ البغدادي الذي سبقت الإشارة إليه ، جزاه الله خــيراً ، فسارعت إلى دراستها ، ومقابلة المصورة الأولى والمطبوع عنها بها ، فاستفدت منها فوائد كثيرة ، وزيادات غير قليلة ، أضفت ما أمكنني منها إلى المطبوعة ، ونبهت على ذلك في حدود الاستطاعة ، كالزيادة التي في الصفحة ( ٧١ ـ ٧٢ ) وغيرها .

وقد كنت ـ قبل ورود النسختين ـ صححت بعض الـكلمات خلافاً للأصل ظناً مني أنها خطأ من الناسخ ، ولدى المقـابلة تبين أنها ليست منه ، لأن النسختين مطابقتان له، فتركت ذلك على ما صححت ، لعدم تيسر تصحيحه وفقاً للنسـخ الثلاث مع التعليق بما يلزم عليه ، ومن الأمثلة على ذلك ما في ( ص ١٦ سطر ٤ ) : « فإنهما تفيدان تحقيق عدم سماعهم ، فإنه ... » فهو في الأصول الثلاثة هكذا : « فإنه مفيدان تحقيق عدم سماعهم من أنه .... » ! وكقوله ( ص ١٩ سطر ١٢ ) : « والمذاهب الأخرى » ، فهو في الأصول : « والمذاهب الآخرين » ! وغير ذلك ، وهو غــير قليل . وأغرب من ذلك كله وأعجب ، أن آية أخذ الميثاق الآتية ( ص ٨٦ ) وقعت في الأصول الثلاثة هكذا ( قالوا : بلى شهدنا

على أنفسنا أن تقولوا ... ) الآية هكذا بزيادة « على أنفسنا » !
والظاهر أنها سبق قلم من المؤلف ، فقد رأيته في إحدى نسختي بغداد بخطه رحمه الله ، ثم تتابع عليها النسـاخ ، دون أن ينتبهوا !

ومع ذلك فإن المصورتين البغداديتين أقدم وأصح وأجمل خطاً من مصورتنا ( الأصل ) ، كما يتبين ذلك جلياً للقراء من النماذج المصورة المعروضة في آخر هذه المقدمة ، ونص خاتمة الأولى منهما :

« وقد كملت هذه الرسالة تأليفاً بتوفيقه عز وجل – في يومين – لسبع من شوال المكرم لسنة خمس وثلاثمائة وألف ، على يد أفقر العباد وأحوجهم إلى الله تعالى محمد صالح نجل المرحوم ملا حيدر ، عفى (!) الله تعالى عنه وعن والديه والمسلمين آمين . تمت » .

وتحت ذلك ما نصه :

« نجزت هذه الرسالة الشريفة كتابة على خط مؤلفها السيد نعمان أفندي المفضال في السادس والعشرين من شوال سنة ١٣٠٥

اللهم صل على سيدنا محمد ، وعلى آل سيدنا محمد ، كما

صليت على سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد » .

ونصها في الأخرى :

« وقد كملت هذه الرسالة تأليفاً بتوفيقه عز وجل - في يومين - لسبع من شوال المكرم لسنة خمس وثلاثمائة وألف . وكان الفراغ من تحرير هذه النسخة يوم الأربعاء لسبع مضين من ربيع الثاني لسنة إحدى عشرة وثلاثمائة وألف ، على يد الفقير إليه عز شأنه علي بن الحسن الأبرولي عفي عنهم أجمعين آمين » .

وفي كل من النسخ الثلاث زيادات ليست في الأخرى، وسبب ذلك يعود إلى أن المؤلف رحمه الله ألف رسالته في مدة وجيزة وهي يومان كما تقدم آنفاً ، فكان كلما بدا له رأي ، أو وقف على نص ، ألحقه بالرسالة تارة بخطه ، وتارة بخط ناسخها ، وهذا أمر ظاهر في كل من المصورتين البغداديتين . ولقد كنت أود أن أضم كل هذه الزيادات في مطبوعتنا هذه مع التنبيه على ذلك في التعليق ، وعزو كل زيادة إلى أصلها ، ولكن لم يعد ذلك بالإمكان بعد أن انتهى طبع أكثر ملازمها ، إلا شيئاً قليلاً ، فقد أمكنني استدراكه ، وهذه المقدمة على الآلة الطابعة ، فلعلني أتمكن من استدراك ذلك كله استدراكاً

تاماً في طبعة أخرى إن شاء الله تعالى .

واعلم أن هذه الرسالة وإن كان موضوعها في بيان حكم فقهي كما ترى ، فذلك لا يعني ـ في اعتقادي ـ أنه لا علاقة لها بما هو أسمى من ذلك وأعلى ، ألا وهو التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده ودعائه تعالى دون سواه ، ومن المعلوم أن الاعتقاد بأن الموتى يسمعون ، هو السبب الأقوى لوقوع كثير من المسلمين اليوم في الشرك الأكبر ، ألا وهو دعاء الأولياء والصالحين وعبادتهم من دون الله عز وجل ، جهلاً أو عناداً ، ولا ينحصر ذلك في الجهال منهم ، بل يشاركهم في ذلك كثير ممن ينتمي إلى العلم ، بل وقد يظن الجماهير أنه من كبار العلماء! فإنهم يبررون لهم ذلك خطابة وكتابة بمختلف التبريرات التي ما أنزل الله بها من سلطان ، والأحزاب الإسلامية كلها مع الأسف لا تعير لذلك اهتماماً يذكر ، لأنه يؤدي بزعم بعضهم إلى الاختلاف والتفرقة ! مع أنهم يعلمون أن الأنبياء إنما كان أوَّل دعوتهم : ( أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ) ، وخيرهم من يسكت عن قيام غيره بهذا الواجب . ومن الظاهر أن ذلك الشيخ الذي ألف العلامة الآلوسي هذه الرسالة في الرد عليه ـ كان منهم ، ولذلك ثارت ثائرته حينما صرَّح المؤلف

رحمه الله في درسه بأن الموتى لا يسمعون ، لأنه يعلم أن ذلك ينافي ما عليه أولئك الجهال من المناداة للأولياء والصالحين ، ودعائهم من دون الله عز وجل . وفي ظني أن المؤلف رحمه الله ما ألف هذه الرسالة إلا تمهيداً للقضاء على هذه الضلالة الكبرى ، ألا وهي الاستغاثة بغير الله تعالى ، على اعتبار أن السبب الأقوى الموجب لها عند من ضل من المسلمين ، إنما هو الاعتقاد بأن الموتى يسمعون ، فإذا تبين أن الصواب أن الموتى لا يسمعون ، لم يبق حينئذ معنى لدعاء الموتى من دون الله تعالى .

فإني لا أكاد أتصور - ولا غيري يتصور - مسلماً يعتقد أن الميت لا يسمع دعاء داعيه ، ثم هو مع ذلك يدعوه ومن دون الله يناديه، إلا أن يكون قد تمكنت منه عقيدة باطلة أخرى ، هي أضل من هذه وأخزى ، كاعتقاد بعضهم في الأولياء ، أنهم قبل موتهم كانوا عاجزين ، وبالأسباب الكونية مقيدين ، فإذا ماتوا انطلقوا وتفلتوا من تلك الأسباب ، وصاروا قادرين على كل شيء كرب الأرباب ! ولا يستغربن أحد هذا ممن عافاهم الله تعالى من الشرك على اختلاف أنواعه ، فإن في المسلمين اليوم من يصرح بان في الكون متصرفين من

الأَولياء دون الله تعالى ممن يُسمونهم هنا في الشام بـ(المدَرِّكين) وبـ (الأَقطاب) وغيرهم، وفيهم من يقول: «نظرة من الشيخ تقلب الشقي سعيداً»! ونحوه من الشركيات. قال العلامة السيد رشيد رضا في «تفسيره» (١١ / ٣٩١) تحت قوله تعالى: (قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله):

«أي لكن ما شاء الله من ذلك كان متى شاء، لا شأن لي فيه، لأنه خاص بالربوبية دون الرسالة التي وظيفتها التبليغ لا التكوين ...

وقد بلغ من جهل الخرافيين من المسلمين بتوحيد الله أن مثل هذه النصوص من آيات التوحيد لم تصد الجاهلين به منهم عن دعوى قدرة الأنبياء والصالحين حتى الميتين منهم على كل شيء من التصرف في نفعهم وضرهم مما يجعله الله تعالى من الكسب المقدور لهم بمقتضى سننه في الأسباب، بل يعتقدون أن منهم من يتصرفون في الكون كله، كالذين يسمونهم بالأقطاب الأربعة. وإن بعض كبار علماء الأزهر في هذا العصر يكتب هذا حتى في مجلة الأزهر الرسمية (نور الإسلام)! فيفتي بجواز دعاء غير الله من الموتى والاستغاثة بهم في كل ما يعجزون عنه

من جلب نفع، ودفع ضر، وألف بعضهم كتاباً في إثبات ذلك،[1] وكون الميتين من الصالحين ينفعون ويضرون بانفسهم، ويخرجون من قبورهم، فيقضون حوائج من يدعونهم ويستغيثون بهم! قال في «فتح البيان»[2] بعد نقله القول الأول في الاستثناء عن أئمة المفسرين وترجيحه ما نصه:

«وفي هذا أعظم وازع، وأبلغ زاجر، لمن صار دَيْدَنُه وهِجِّيراه المناداة لرسول الله ﷺ، أو الاستغاثة به عند نزول النوازل التي لا يقدر على دفعها إلا الله سبحانه، وكذلك من صار يطلب من الرسول ما لا يقدر على تحصيله إلا الله سبحانه، فإن هذا مقام رب العالمين، الذي خلق الأنبياء والصالحين وجميع المخلوقين، ورزقهم وأحياهم ويميتهم، فكيف يطلب من نبي من الأنبياء، أو ملَك من الملائكة، أو صالح من الصالحين ما هو عاجز عنه غير قادر عليه؟ ويترك الطلب لرب الأرباب، القادر على كل شيء الخالق الرزاق المعطي المانع؟! وحسبك بما في الآية من موعظة؛ فإن سيد ولد آدم وخاتم الرسل يأمره الله بأن يقول لعباده: (لا أملك لنفسي ضراً ولا

---

(١) قلت: كأنه يشير إلى كتاب «شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق» للشيخ يوسف النبهاني الأزهري.

(٢) (ج ٤ ص ٢٢٥ - ٢٢٦)

نفعاً ) فكيف يَملكه لِغيره ؟! وكيف يملكه غيرُه - ممن رتبته دون رتبته ، ومنزلته لاتبلغ إلى منزلته - لنفسه ، فضلاً عن أن يملكه لغيره ؟!

فياعجباً لقوم يعكفون على قبور الأموات الذين قد صاروا تحت أطباق الثرى ، ويطلبون منهم من الحوائج ما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل !كيف لا يتيقظون لما وقعوا فيه من الشرك ،ولا ينتبهون لما حل بهم من المخالفة لمعنى (لاإله إلا الله» ، ومدلول ( قل هو الله أحد ) ؟! وأعجب من هذا اطلاع أهل العلم على ما يقع من هؤلاء ولا ينكرون عليهم ، ولا يحولون بينهم وبين الرجوع إلى الجاهلية الأولى ، بل إلى ما هو أشد منها ، فإن أولئك يعترفون بأن الله سبحانه هو الخالق الرزاق ، المحيي المميت ، الضار النافع ، وإنما يجعلون أصنامهم شفعاء لهم عند الله ، ومُقربين لهم إليه ، وهؤلاء يجعلون لهم قدرة على الضر والنفع ،وينادونهم تارة على الاستقلال، وتارة مع ذي الجلال ، وكفاك من شر سماعه ، والله ناصر دينه ، ومطهر شريعته من أوضار الشرك ، وأدناس الكفر ، ولقد توسل الشيطان - أخزاه الله - بهذه الذريعة إلى ما تقرُّ به عينه ، وينثلج به صدره، من كفر كثير من هذه الأمة المباركة (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ) ، إنا لله وإنا إليه راجعون».

وقال السيد رشيد أيضاً تحت قوله تعالى: (... دَعَوُا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتَنا من هذه لَنكونَنَّ من الشاكرين» (١١/٣٣٨ ـ ٣٣٩):

« وفي هذه الآية وأمثالها بيان صريح لكون المشركين كانوا لا يدعون في أوقات الشدائد وتقطع الأسباب بهم إلا الله ربهم، ولكن من لا يحصى عددهم من مسلمي هذا الزمان بزعمهم لا يدعون عند أشد الضيق إلا معبوديهم من الميتين كالبدوي والرفاعي والدسوقي والجيلاني والمتْبولي وأبي سريع وغيرهم ممن لا يحصى عددهم، وتجد من حملة العمائم الأزهريين وغيرهم ولاسيما سدنة المشاهد المعبودة الذين يتمتعون بأوقافها ونذورها من يغريهم بشركهم، ويتأوله بتسميته بغير اسمه في اللغة العربية كالتوسل وغيره.

وقد سمعت من كثيرين من الناس في مصر وسورية حكاية يتناقلونها، ربما تكررت في القطرين لتشابه أهلهما وأكثر مسلمي هذا العصر في خرافاتهم، وملخصها: أن جماعة ركبوا البحر فهاج بهم حتى أشرفوا على الغرق، فصاروا يستغيثون معتقديهم، فبعضهم يقول: يا سيد يا بدوي! وبعضهم يصيح: يا رفاعي! وآخر يهتف: يا عبد القادر

ياجيلاني !... الخ ، وكان فيهم رجل موحد ضاق بهم ذرعاً فقال : يا رب أغرق أغرق ، ما بقي أحد يعرفك ! » .

ثم ذكر في معنى الآية نحو ذلك عن الإمام الآلوسي والد المؤلف في « روح المعاني » ، ثم قال الآلوسي :

« وظاهر الآية أنه ليس المراد تخصيص الدعاء فقط به سبحانه ، بل تخصيص العبادة به تعالى أيضاً ، لأنهم بمجرد ذلك لا يكونون مخلصين له الدين . وأياً ما كان فالآية دالة على أن المشركين لا يدعون غيره تعالى في تلك الحال ، وأنت خبير بأن الناس اليوم إذا اعتراهم أمر خطير ، وخطب جسيم ، في بر أو بحر ، دعوا من لا يضر ولا ينفع ، ولا يرى **ولا يسمع** ، فمنهم من يدعو الخضر وإلياس ، ومنهم من ينادي أبا الخميس والعباس ، ومنهم من يستغيث بأحد الأئمة ، ومنهم من يضرع إلى شيخ من مشايخ الأمة ، ولا ترى أحداً فيهم ، يَخصُّ مولاه ، بتضرعه ودعاه ، ولا يكاد يمر له ببال ، أنه لو دعا الله تعالى وحده ينجو من هاتيك الأهوال ، فبالله عليك قل لي : أي الفريقين من هذه الحيثية أهدى سبيلا ، وأي الداعِيَيْن أقوم قيلا ؟ وإلى الله المشتكى من زمان عصفت فيه ريح الجهالة ، وتلاطمت أمواج الضلالة ، وخُرقت سفينة الشريعة ، واتُّخِذت

الاستغاثة بغير الله تعالى للنجاة ذريعة ، وتعذر على العارفين الأمر بالمعروف ، وحالت دون النهي عن المنكر صنوف الحُتُوف » .

قلت : يشير العلامة الألوسي رحمه الله إلى ما يلقاه الدعاة المصلحون في كل زمان ومكان من الشدة والمعارضة لدعوتهم الحق ، بسبب فُشو الشرك والبدع في الناس عامتهم ، وشيوخ البدع من علمائهم ، والمنافقين من حكامهم ، ( والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ) .

هذا ، وليس غرضي الآن أن أشبع الكلام في توحيد الربوبية والأُلوهية وما ينافيهما من الشرك والوثنية ، فذلك أمر لا تتسع له هذه المقدمة ، لا سيما وقد قام بذلك خير القيام ، أئمة التوحيد وشيوخ الإسلام ، كالإمام ابن تيمية ، وابن قيم الجوزية ، ومحمد بن عبد الوهاب ، والصنعاني ، والشوكاني وغيرهم من أُولي الألباب ، وإنما الغرض بيان ارتباط هذه المسألة « سماع الموتى » بنوع من أنواع الشرك ، وأن القضاء عليه يكون بتحقيق أن الموتى لا يسمعون ؛ فإني أعلم علم اليقين أن في المستغيثين بالأولياء والصالحين من لم يقم في نفوسهم ما تقدم بيانه من الضلال الأكبر ، ولكنهم لما كانوا يعتقدون

أنهم يسمعون كالأحياء ، وكان من المسلَّم لديهم مناداتهم والاستغاثة بهم في حياتهم،استجازوا ذلك بهم بعد موتهم! وقد ردالأئمة عليهم بما هو معروف لدى علماء المسلمين من أن الاستغاثة بهم في حياتهم ليست على إطلاقها وشمولها ، وإنما هي بما يدخل تحت قدرتهم التي مكنهم الله تعالى منها،وليس من ذلك السعادة، والرزق والشفاء،وهداية القلوب ، وغفران الذنوب ، ونحوه مما هو متعلق بربوبيته سبحانه وتعالى، فطلب ذلك من الأولياء في حياتهم شرك وضلال أكبر ،مخل بتوحيد الربوبية بله الألوهية كما هو ظاهر، فكيف بذلك بعد موتهم، لاشك أنه أدهى وأمر.

وإني لأشعر ـ وقد بلغت في تسلسل هذا البحث العلمي إلى هذه النقطة الهامة ـ أنه لم يبق عند المستغيثين بغير رب العالمين شبهة تذكر إلا أن يقولوا :

سلمنا بكل ماذكرتم، ولكن هل من مانع يمنع أن نطلب منهم ما كان بمقدورهم في الحياة الدنيا ، كالدعاء مثلاً ، فبدل أن نقول مثلاً : يا رسول الله أغثنا ، أو اشفع لنا . نقول : ادع الله لنـــا أن يغيثنا ، أو أن يشفعك فينا . ولا نقول : يا رسول الله اغفر لنا ذنوبنا ، وإنما نقول : استغفر لنا ذنوبنا. بل إن هذا بعينه هو قصدنا نحن المستغيثين به ﷺ أو بغيره من الأولياء والصالحين والطلب منهم وإن أسأنا التعبير ! فقد

جاء في الحديث : «... تعرض علي أعمالكم ؛ فإن رأيتُ خيراً حمدت الله ، وإن رأيت شراً استغفرت لكم » ![1]

وجواباً عليه أقول :

إن سلمنا بأن ذلك هو القصد ، فالطلب من أصله خطأ وضلال لايجوز ، بل يجب الامتناع منه فوراً ، وبيانه من وجهين :

**الأول** : أنه ينافي الإخلاص لله تعالى في دعائه وعبادته وحده ، وفي ذلك آيات كثيرة صريحة في النهي عن دعاء غير الله تعالى من الأولياء والصالحين كما سيأتي ، وقد مضى بعضها ، ومنها قوله تعالى : ( قل ادعُوا الذين زَعمتم مِنْ دون اللهِ لا يَملكون مِثقال ذَرَةٍ في السماواتِ ولا في الأرض وما لهم فيهما من شِركٍ وما له منهم من ظهير . ولا تَنْفع الشفاعةُ عنده إلا لمن أَذِنَ له ) . ( سبأ ٢٢ ـ ٢٣ ) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في « مجموع الفتاوى » ( ١/١٧٩ – ١٨١ ) بعد ذكر هذه الآية وغيرها :

« ومثل هذا في القرآن كثير : ينهى أن يُدعى غيرُ

---

(١) قلت : وهو حديث ضعيف كما حققته في « الأحاديث الضعيفة » (٩٧١ ـ المجلد الثاني ) ، وسيصدر قريباً بإذن الله .

الله ، لا الملائكة ولا الأنبياء ولا غيرهم ؛ فإن هذا شرك ، أو ذريعة إلى الشرك ، بخلاف مايطلب من أحدهم في حياته من الدعاء والشفاعة ؛ فإنه لايفضي إلى ذلك ؛ فإن أحداً من الأنبياء والصالحين لم يعبد في حياته بحضرته ، فإنه يَنْهى من يفعل ذلك ، بخلاف دعائهم بعد موتهم ؛ فإن ذلك ذريعة إلى الشرك بهم ، وكذلك دعاؤهم في مغيبهم هو ذريعة إلى الشرك.

فمن رأى نبياً أو ملَكاً من الملائكة وقال له : « ادعُ لي » لم يُفضِ ذلك إلى الشرك به ، بخلاف من دعاه في مغيبه ؛ فإن ذلك يفضي إلى الشرك به كما قد وقع ؛ فإن الغائب والميت لا ينهى من يشرك ، بل إذا تعلقت القلوب بدعائه وشفاعته أفضى ذلك إلى الشرك به ، فَدُعي ، وقُصد مكانُ قبره أو تمثاله أوغير ذلك ، كما قد وقع فيه المشركون ومن ضاهاهم من أهل الكتاب ومبتدعة المسلمين .

ومعلوم أن الملائكة تدعو للمؤمنين وتستغفر لهم كما قال تعالى : ( الذين يحملون العرشَ ومَنْ حَوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا : ربنا وسِعتَ كلَّ شيء رحمةً وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقِهمْ عذاب الجحيم ) .

فالملائكة يستغفرون للمؤمنين من غير أن يسألهم أحد ، وكذلك ماروي أن النبي ﷺ أو غيره من الأنبياء والصالحين يدعو ويشفع للأخيار من أُمته هو من هذا الجنس، هم يفعلون ما أذن الله لهم فيه بدون سؤال أحد .

وإذا لم يُشرع دعاءُ الملائكة لم يشرع دعاء من مات من الأنبياء والصالحين، ولا أن نطلب منهم الدعاء والشفاعة، وإن كانوا يدعون ويشفعون ؛ لوجهين :

**أحدهما** : أن ما أمرهم الله به من ذلك هم يفعلونه وإن لم يطلب منهم ، وما لم يؤمروا به لا يفعلونه ولو طلب منهم ، فلا فائدة في الطلب منهم .

**الثاني** : أن دعاءهم وطلب الشفاعة منهم في هذه الحال يُفضي إلى الشرك بهم ، ففيه هذه المفسدة ، فلو قدر أن فيه مصلحة لكانت هذه المفسدة راجحة ، فكيف ولا مصلحة فيه؛ بخلاف الطلب منهم في حياتهم وحضورهم ؛ فإنه لا مفسدة فيه ؛ فإنهم ينهون عن الشرك بهم . بل فيه منفعة ، وهو أنهم يثابون ويؤجرون على ما يفعلونه حينئذ من نفع الخلق كلهم ؛ فإنهم في دار العمل والتكليف ، وشفاعتهم في الآخرة فيها إظهار كرامة الله لهم يوم القيامة » .

وقال في موضع آخر ( ١/٣٣٠ - ٣٣١ ) :

« وكذلك الأنبياء والصالحون ، وإن كانوا أحياء في قبورهم ، وإن قُدِّر أنهم يدعون للأحياء ، وإن وردت به آثار [١] ، فليس لأحد أن يطلب منهم ذلك ، ولم يفعل ذلك أحد من السلف ، لأن ذلك ذريعة إلى الشرك بهم وعبادتهم من دون الله تعالى ؛ بخلاف الطلب من أحدهم في حياته ؛ فإنه لا يفضي إلى الشرك ؛ ولأن ماتفعله الملائكة ويفعله الأنبياء والصالحون هو بالأمر الكوني ، فلا يؤثر فيه سؤال السائلين ؛ بخلاف سؤال أحدهم في حياته ؛ فإنه يشرع إجابة السائل ، وبعد الموت انقطع التكليف عنهم » .

والخلاصة : أن طلب الدعاء والشفاعة ونحو ذلك من الأنبياء والصالحين بعد موتهم لايجوز ؛ لأنه شرك . أو ذريعة إلى الشرك،وهذاهو الوجه الأول من الوجهين الدالَّين على ذلك.

**والوجه الآخر** : أن ذلك يعني عند الطالبين أن الأنبياءوالصالحين يسمعون طِلبتهم، وإلا كان دعاؤهم ومناداتهم بذلك سخفاً جلياً وضلالاً بيناً ، وهذا مما يترفع عنه العاقل ، بله المؤمن ، لأنه باطل بداهة وفطرة ، وبذلك احتج الله على

---

(١) **كأنه يشير إلى الحديث السابق** .

المشركين في مواطن كثيرة من القرآن، فقال تعالى في (الأعراف ١٩٤ و١٩٥) : ( إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم، فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيدٍ يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها **أم لهم آذان يسمعون بها** )؟! ولذلك كانت هذه حجة إبراهيم على أبيه وقومه : ( إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد **ما لا يسمع** ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ) ( مريم ٤٢ ) وقال في ( الشعراء ٧٠ ــ ٧٤ ) : ( إذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون. قالوا: نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين. قال: **هل يسمعونكم إذ تدعون** . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ) فقد اعترفوا بهذه الحجة القاطعة وخضعوا لها في قلوبهم ، ولكنهم عاندوا وعدلوا عنها إلى قولهم: (بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون)

إذا عرفت هذا ، فتنبه أيها المسلم المبتلى بدعاء الأولياء والصالحين من دون الله تعالى، هل أنت تعتقد أنهم حين تناديهم لا يسمعونك ؟ إذن فأنت مع مخالفتك للعقل والفطرة السليمة مثل أولئك المشركين من قوم إبراهيم وغيرهم ولا فرق ، فلا ينفعك والحالة هذه ما تدعيه من إسلام وإيمان ، لأن الله تعالى يقول في القرآن : ( لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن

من الخاسرين ) ( الزمر ٦٥ ) وان كنت تزعم أنهم يسمعونك، ولذلك تناديهم وتستغيث بهم وتطلب منهم ، فهي ضلالة أخرى فقت بها المشركين! واني لأعيذك بالله أن تكون منهم في شيء.

فاعلم أخي المسلم ! أن كل ما أعطاه الله تعالى للبشر - وفيهم الأنبياء والأولياء - من قدرات وصفات ، أن كل ذلك يذهب بالموت ، كالسمع والبصر ، والبطش ، والمشي ، ونحو ذلك ، فما يبقى منها شيء كما هو مشاهد ، اللهم الا الروح باتفاق المسلمين ،[1] وأجساد الأنبياء كما في الحديث الصحيح ،[2] فمن زعم أن الموتى يسمعون، فهو كالذي يزعم أنهم يبصرون ويبطشون ويتصرفون ! فكل هذا - مع كونه خلاف المشاهد - انما هو تحدث عما وراء العقل والمادة ، وذلك مما لا يجوز شرعاً ، لأنه من الغيب ، ولا يعلم الغيب الا الله تعالى ، واذا كان الأمر كذلك - وهو كذلك يقيناً لا شك فيه - فلا يجوز نسبة شيء مما ذكر الى الموتى جميعاً الا بنص من الشارع الحكيم ، فهل جاء نص يثبت للموتى صفة السمع أي أن من طبيعة الميت أن يسمع الكلام كما كان قبل موته ، وأن ذلك صفة له كما كانت له قبل ذلك ،

(١) انظر ما يأتي في « الآيات » ( ص ٨٠ ) .
(٢) انظر ( ص ٤٣ ) .

أم الأمر على النقيض من ذلك ، كما شرحه المؤلف رحمه الله تعالى وبسط القول فيه معتمداً على أقوال المذاهب والأئمة ؟

هذا ما أردت تحقيقه وتأييده بما وقفت عليه من الأدلة من الكتاب والسنة الصحيحة ، راجياً ممن وقف عليه أن يصيخ بسمعه ، ويصغي بقلبه ، ويتبع آيات ربه القائل في كتابه : ( إنك لا تُسمع الموتى ، ولا تسمع الصمَّ الدعاء إذا ولَّوا مدبرين . وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم **إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون** ) . ( النمل ٨٠ ـ ٨١ )

## تحقيق أن الموتى لا يسمعون

هذا ، واعلم أن كون الموتى يسمعون ، انما هو أمر غيبي من أمور البرزخ التي لا يعلمها الا الله عز وجل ، فلا يجوز الخوض فيه بالأقيسة والآراء ، وانما يوقف فيه مع النص إثباتاً ونفياً ، وسترى المؤلف رحمه الله تعالى ذكر في الفصل الأول كلام الحنفية في أنهم لا يسمعون ، وفي الفصل الثاني نقل عن غيرهم مثله ، وحكى عن غير هؤلاء أنهم يسمعون ، وليس يهمني أن هولاء قلة ، وأولئك كثرة ، فالحق لا يعرف بالكثرة ولا بالقلة ، وانما بدليله الثابت في الكتاب والسنة ، مع التفقه فيهما ، وهذا ما أنا بصدده إن شاء الله تعالى ، فأقول :

استدل الأولون بقوله تعالى: (وما أنت بمسمعٍ من في القبور) (فاطر ٢٢) وقوله: (انك لا تُسمع الموتى، ولا تُسمع الصمَّ الدعاء اذا وَلَّوا مدبرين) (النحل ٨٠ والروم ٥٢)

وأجاب الآخرون بأن الآيتين مجاز، وأنه ليس المقصود بـ (الموتى) وبـ (من في القبور) الموتى حقيقة في قبورهم، وانما المراد بهم الكفار الأحياء، شُبهوا بالموتى، «والمعنى من هم في حال الموتى، أو في حال مَن سكن القبر» كما قال الحافظ ابن حجر على ما يأتي في الرسالة (ص ٣١).

فأقول: لاشك عند كل من تدبر الآيتين وسياقهما أن المعنى هو ما ذكره الحافظ رحمه الله تعالى[1] وعلى ذلك جرى علماء التفسير لاخلاف بينهم في ذلك فيما علمت، ولكن ذلك لايمنع الاستدلال بهما على ماسبق، لأن الموتى لما كانوا لايسمعون حقيقة، وكان ذلك معروفاً عند المخاطبين شبه الله تعالى بهم الكفار الأحياء في عدم السماع، فدل هذا التشبيه على أن المشبه بهم - وهم الموتى في قبورهم - لايسمعون، كما يدل مثلاً تشبيه زيد في الشجاعة بالأسد على أن الاسد شجاع، بل هو في ذلك أقوى

---

(١) وقد بين ذلك بياناً شافياً العلامة محمد الأمين الشنقيطي في كتابه «أضواء البيان» (٦/٤١٦ — ٤٢١).

من زيد، ولذلك شبه به، وان كان الكلام لم يسق للتحدث عن عن شجاعة الأسد نفسه، وانما عن زيد ، وكذلك الآيتان السابقتان ، وان كانتا تحدثتا عن الكفار الأحياء وشبهوا بموتى القبور ، فذلك لاينفي أن موتى القبور لايسمعون ، بل ان كل عربي سليم السليقة ، لايفهم من تشبيه موتى الأحياء بهؤلاء إلا أن هؤلاء أقوى في عدم السماع منهم كما في المثال السابق، وإذ الأمر كذلك فموتى القبور لايسمعون . ولما لاحظ هذا بعض المخالفين لم يسعه إلا أن يسلم بالنفي المذكور ، ولكنه قيده بقوله : « سماع انتفاع » ! يعني أنهم يسمعون ، ولكن سماعاً لا انتفاع فيه ! [1] وهذا في نقدي قلب للتشبيه المذكور في الآيتين حيث جعل المشبه به مشبهاً ، فإن القيد المذكور يصدق على موتى الأحياء من الكفار ، فإنهم يسمعون حقيقة، ولكن لاينتفعون من سماعهم ! كما هو مشاهد ، فكيف يجوز جعل المشبه بهم من موتى القبور مثلهم في أنهم يسمعون ولكنهم لا ينتفعون من سماعهم ! مع أن المشاهد أنهم لايسمعون مطلقاً ؛ ولذلك حسن التشبيه المذكور في الآيتين الكريمتين ، فبطل القيد المذكور .

---

(١) انظر (ص ٤٥ - ٤٦) من كتاب «الروح» المنسوب لابن القيم رحمه الله تعالى .

ولقد كان من الممكن القول بنحو القيد المذكور في موتى القبور، لو كان هناك نص قاطع على أن الموتى يسمعون مطلقاً، إذن لوجب الايمان به والتوفيق بينه وبين ما قد يعارضه من النصوص كالآيتين مثلاً، ولكن مثل هذا النص مما لا وجود له، بل الأدلة قائمة على خلافه، وإليك البيان:

**الدليل الأول**: قوله تعالى في تمام الآية الثانية: (ولا تُسمع الصمَ الدعاء إذا ولَّوْا مدبرين)، فقد شبههم الله تعالى - أعني موتى الأحياء من الكفار بالصم أيضاً، فهل هذا يقتضي في المشبه بهم (الصم) أنهم يسمعون أيضاً، ولكن سماعاً لا انتفاع فيه أيضاً! أم أنه يقتضي أنهم لا يسمعون مطلقاً، كما هو الحق الظاهر الذي لا خفاء فيه. وفي التفسير المأثور ما يؤيد هذا الذي نقول. فقال ابن جرير في «تفسيره» (٢١/٣٦) لهذه الآية:

«هذا مَثَل معناه: فإنك لا تقدر أن تُفهم هؤلاء المشركين الذين قد ختم الله على أسماعهم، فسلبهم فهم ما يتلى عليهم من مواعظ تنزيله، كما لا تقدر أن تفهم الموتى **الذين سلبهم الله أسماعهم**، بأن تجعل لهم أسماعاً.

وقوله: (ولا تُسمع الصمَّ الدعاءَ) يقول: كما لا تقدر أن تسمع الصم **الذين قد سلبوا السمع** إذا ولوا عنك مدبرين،

كذلك لا تقدر أن توفق هؤلاء الذين قد سلبهم الله فهم آيات كتابه لسماع ذلك وفهمه » .

ثم روى بإسناده الصحيح عن قتادة قال :

« هذا مَثل ضربه الله للكافر ، فكما **لا يسمع الميت الدعاء** كذلك لا يسمع الكافر ، ( ولا تُسمع الصم الدعاء .. ) يقول : **لو أن أصم ولى مدبراً ثم ناديته لم يسمع** ، كذلك الكافر لا يسمع ؛ ولا ينتفع بما سمع » . وعزاه في « الدر » (١١٤/٥) لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم دون ابن جرير !

وقد فسر القرطبي (٢٣٢/١٣ ) هذه الآية بنحو ما سبق عن ابن جرير ، وكأنه اختصره منه .

فثبت من هذه النقول عن كتب التفسير المعتمدة أن الموتى في قبورهم لا يسمعون ، كالصم إذا ولوا مدبرين !

وهذا هو الذي فهمته السيدة عائشة رضي الله عنها ، واشتهر ذلك عنها في كتب السنة وغيرها ، ونقله المؤلف عنها في عدة مواضع من رسالته فانظر ( ص ٧ ، ١٠ ، ١٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٠ ) ، وفاته هو وغيره أنه هو الذي فهمه عمر رضي الله عنه وغيره من الصحابة ، لما نادى النبي ﷺ أهل القليب ، على ما يأتي بيانه قريباً إن شاء الله تعالى .

**الدليل الثاني :** قوله تعالى : ( ذلكم اللهُ ربكم له الملك، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . **إنْ تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ،** ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككُم، ولا يُنبئك مثل خبير ) .(فاطر ١٣/١٤).

قلت : فهذه الآية صريحة في نفي السمع عن أولئك الذين كان المشركون يدعونهم من دون الله تعالى ، وهم موتى الأولياء والصالحين الذين كان المشركون يمثلونهم في تماثيل وأصنام لهم ، يعبدونهم فيها ، وليس لذاتها ، كما يدل على ذلك آية سورة ( نوح ) عن قومه : ( وقالوا : لا تَذَرُنَّ آلهتكم ولا تَذرُنّ وَدّاً ولا سواعاً ولا يغوثَ ويعُوق ونسْراً ) ، ففي التفسير المأثور عن ابن عباس وغيره من السلف : أن هؤلاء الخمسة أَسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم : أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك وَتَنسَّخَ العلم ( أي علمُ تلك الصور بخصوصها ) عُبدت . رواه البخاري وغيره . ونحوه قوله تعالى : ( والذين اتّخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زُلْفى ) ( زمر/٣ ) ، فإنها صريحة في أن المشركين كانوا يعبدون الصالحين ، ولذلك

اتخذوهم وسائط بينهم وبين الله تعالى قائلين : ( ما نعبدُهم إلا ليقربونا إلى الله زُلْفى ) ، ولاعتقادهم بصلاحهم كانوا ينادونهم ويعبدونهم من دون الله ، توهماً منهم أنهم يسمعون ، ويضرون وينفعون ، ومثل هذا الوهم لايمكن أن يقع فيه أي مشرك مهما كان سخيف العقل لو كان لايعتقد فيمن يناديه الصلاح والنفع والضر كالحجر العادي مثلاً ، وقد بين هذا العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى ، فقال في كتابه «إغاثة اللهفان» ( ٢/٢٢٢ ـ ٢٢٣ )

« وتلاعُبُ الشيطان بالمشركين في عبادة الأصنام له أسباب عديدة ، تلاعبَ بكل قوم على قدر عقولهم .

فطائفة دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى ، **الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم،** كما تقدم عن قوم نوح عليه السلام ، ولهذا لعن النبي ﷺ المتخذين على القبور المساجد ، ونهى عن الصلاة إلى القبور [1] .. فأبى المشركون إلا خلافه في ذلك كله ، إما جهلاً ، وإما عناداً لأهل التوحيد ، ولم يضرَّهم ذلك شيئاً . وهذا السبب هو الغالب على عوام المشركين .

وأما خواصهم فإنهم اتخذوها ـ بزعمهم ـ على صور

---

(١) انظر كتابي : « تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد » .

الكواكب المؤثرة في العالم عندهم، وجعلوا لها بيوتاً وسدنة، وحجاباً، وحُجُباً، وقربانا، ولم يزل هذا في الدنيا قديماً وحديثاً (ثم بين مواطن بيوت هذه الأصنام، وذكر عباد الشمس والقمر وأصنامهم، وما اتخذوه من الشرائع حولها، ثم قال ٢/٢٢٤):

« فوضع الصنم إنما كان في الأصل على شكل معبود غائب، فجعلوا الصنم على شكله وهيأته وصورته ليكون نائباً منابه، وقائماً مقامه، والا فمن المعلوم أن عاقلاً لا ينحت خشبة أو حجراً بيده، ثم يعتقد أنه إلهه ومعبوده ».

قلت: ومما يؤيد أن المقصود بقوله في الآية المتقدمة (لا يَسْمعوا دعاءكم) إنما هم المعبودون من دون الله أنفسهم، وليست ذوات الأصنام تمام الآية: (ويوم القيامة يكفرون بشرككم)، والأصنام لاتبعث لأنها جمادات غير مكلفة كما هو معلوم، بخلاف العابدين والمعبودين فإنهم جميعاً محشورون، قال تعالى: (ويومَ يحشرهم وما يعبدون من دونِ اللهِ فيقولُ: ءأنتم أضْلَلتم عبادي أمْ هم ضَلوا السبيلَ. قالوا: سبحانَكَ ما كان ينبغي لنا أن نَتَّخذَ من دونك من أولياء ولكن مَتعْتَهمُ وآباءهم حتى نَسُوا الذكر وكانوا قوماً بُورا) (الفرقان /١٧ ـ ١٨)

وقال : ( ويومَ يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاءِ إيَّاكم كانوا يَعبدون . قالوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يَعْبُدون الجنَّ أكثرهم بهم مؤمنون ) . ( سبأ / ٤٠ ـ ٤١ ) وهذا كقوله تعالى : ( وإذ قال الله : يا عيسى ابنَ مَريمَ ءَأنت قلت للناسِ اتَّخذوني وأميَ إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ما يكون لي أن أقولَ ماليس لي بحقٍّ )الآية ( المائدة/١١٩) وخير ما فسر به القرآن، إنما هو القرآن والسنة ، وليس فيهما ـ فيما أعلم ـ ما يدل على أن الله يحشر الجمادات أيضاً ، فوجب الوقوف عند هذه الآية الصريحة فيما ذكرنا .

وقد يقول قائل : إن هذا الذي بينته قوي متين، ولكنه يخالف ما جرى عليه كثير من المفسرين في تفسير آية سورة (فاطر) ، وما في معناها من الآيات الأخرى ، فقالوا : إن المراد بها الأصنام نفسها ، وبناء على ذلك عللوا قوله تعالى فيها : ( لايسمعوا دعاءكم ) بقولهم : « لأنها جمادات لاتضر ولاتنفع » !

فاقول : لاشك أن هذا بظاهره ينافي ما بينت ، ولكنه لاينفي أن يكون لهم قول آخر يتماشى مع ما حققته ،

فقد قال القرطبي ( ١٤/ ٣٣٦ ) عقب التعليل المذكور آنفاً ، وتبعه الشوكاني ( ٣٣٣/٤) وغيره ما معناه :

« ويجوز أن يرجع ( والذين تدعون من دونه... ) وما بعده إلى من يعقل ممن عبدهم الكفار كالملائكة والجن والأنبياء والشياطين ، والمعنى أنهم يجحدون أن يكون ما فعلتموه حقاً وينكرون أنهم أمروكم بعبادتهم ، كما أُخبر عن عيسى عليه السلام بقوله : ( ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ) » . وقد ذكرا نحوه في تفسير آية ( الزمر ) المتقدمة .

قلت : وهو أولى من تفسيرهما السابق ، لأنه مدعم بالآيات المتقدمة بخلاف تفسيرهما المشار اليه، فإنه يستلزم القول بحشر الأصنام ذاتها ؛ وهذا مع أنه لا دليل عليه فإنه يخالف الآيات المشار إليها ، ولهذا قال الشيخ عبد الرحمن ابن شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب - رحمهما الله - في كتابه « قرة عيون الموحدين » ( ص ١٠٧ ـ ١٠٨ ) في تفسير آيتي ( فاطر ) ما نصه :

« ابتدأ تعالى هذه الآيات بقوله : ( ذلكُمُ اللهُ ربكم له الملك ) ، يخبر الخبير أن الملك له وحده ، والملوك

وجميع الخلق تحت تصرفه وتدبيره ، ولهذا قال : ( والذين تَدعون من دونه ما يملكون من قطمير ) ، فإن من كانت هذه صفته فلا يجوز أن يرغب في طلب نفع ، أو دفع ضر إلى أحد سوى الله تعالى وتقدس ، بل يجب إخلاص الدعاء له الذي هو أعظم أنواع العبادة ، وأخبر تعالى أن ما يدعوه أهل الشرك لايملك شيئاً ، **وأنهم لايسمعون** دعاء من دعاهم ، ولو فُرض أنهم يسمعون ، فلا يستجيبون لداعيهم ، وأنهم يوم القيامة يكفرون بشركهم ، أي ينكرونه ، ويتبرؤون ممن فعله معهم . فهذا الذي أخبر به الخبير الذي ( لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ) وأخبر أن ذلك الدعاء شرك به ، وأنه لايغفره لمن لقيه ، فأهل الشرك ما صدقوا الخبير ولا أطاعوه فيما حكم به وشرع ، بل قالوا : إن الميت يسمع ، ومع سماعه ينفع ، فتركوا الإسلام والإيمان رأساً ، كما ترى عليه الأكثرين من جهلة هذه الأمة » .

فتبين مما تقدم وجه الاستدلال بقوله تعالى : ( إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ) على أن الصالحين لايسمعون بعد موتهم ، وغيرهم مثلهم بداهة ، بل ذلك من باب أولى كما

لايخفى ، فالموتى كلهم إذن لايسمعون . والله الموفق .

**الدليل الثالث** : حديث قليب بـدر ، وله روايات مختصرة ومطولة ، أجتزىء هنا على روايتين منها :

**الأولى** : حديث ابن عمر قال :

« وقف النبي ﷺ على قليب بدر ، فقال : هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ ثم قال : « إنهم **الآن** يسمعون ما أقول » ، فذكر لعائشة فقالت : إنما قـال النـبي ﷺ : إنهم الآن يعلمون أن الذي كنت أقول لهم هو الحـق ، ثم قرأت : ( إنك لاتسمع الموتى ) حتى قرأت الآية » .

أخرجه البخاري (٢٤٢/٧ ـ فتح الباري ) والنسائـي (٦٩٣/١ ) ، وأحمد ( ٣١/٢ ) من طريق أخرى عن ابن عمر ، وسيأتي بعضه في الكتاب ( ص ٢٦ ، ٣٠ ) .

**والأخرى** : حديث أبي طلحة أن نـبي الله ﷺ أمر يوم بدرٍ بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقذفوا في طَويٍّ من أطواء بدر خبيث مُخبِث ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعَرَصة ثلاث ليالٍ ، فلما كان ببدر اليومَ الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلُها ثم مشى ، واتَّبعه أصحابه وقالوا : ما نُرى ينطلق إلا لبعض حاجته ،

حتى قام على شفة الرَّكِيِّ ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم : يا فلان ابن فلان ، : ويا فلان ابن فلان ! أيسرُكم أنكم أطعتم الله ورسوله ، فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ قال : فقال عمر : يارسول الله ! ما تُكَلِم من أجساد لا أرواح فيها ؟ فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسُ محمد بيده ما أنتم بأَسمع لما أقول منهم » . قال قتادة : أَحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخاً ، وتصغيراً ، ونقمة ، وحسرة ، ونَدَماً .

أَخرجه الشيخان وغيرهما ، وقد خرجته في التعليق الآتي ( ص ٦ ) من الكتاب .

ووجه الاستدلال بهذا الحديث يتضح بملاحظة أمرين:

**الأول** : ما في الرواية الأولى منه من تقييده ﷺ سماع موتى القليب بقوله : « الآن » ، فإن مفهومه أنهم لايسمعون في غير هذا الوقت . وهو المطلوب . وهذه فائدة هامة نَبَّه عليها العلامة الألوسي ـ والد المؤلف ـ رحمهما الله في كتابه « روح المعاني » ( ٦/٤٥٥ ) ، ففيه تنبيه قوي على أن الأصل في الموتى أنهم لايسمعون ، ولكن أهل القليب في ذلك الوقت قد سمعوا نداء النبي ﷺ

بإسماع الله تعالى إياهم خرقاً للعادة ومعجزة للنبي ﷺ كما سيأتي في الكتاب ( ص ١٠ ، ١٥ ) عن بعض العلماء الحنفية ، وغيرهم من المحدثين . وفي تفسير القرطبي (٢٣٢/١٣) :

« قال ابن عطية :[1] فيشبه أن قصة بدر خرق عادة لمحمد ﷺ في أن ردّ الله إليهم إدراكاً سمعوا به مقاله ، ولولا إخبار رسول الله ﷺ بسماعهم لحملنا نداءه إياهم على معنى التوبيخ لمن بقي من الكفرة ، وعلى معنى شفاء صدور المؤمنين » .

قلت : ولذلك أورده الخطيب التبريزي في « باب المعجزات » من « المشكاة » ( ج ٣ رقم ٥٩٣٨ ـ بتخريجي ) .

**والأمر الآخر** : أن النبي ﷺ أقر عمر وغيره من الصحابة على ما كان مستقراً في نفوسهم واعتقادهم أن الموتى لا يسمعون ، بعضهم أومأ ألى ذلك إيماءً ، وبعضهم ذكر ذلك صراحة ، لكن الأمر بحاجة إلى توضيح فأقول :

---

(١) هو عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي الغرناطي ، مفسر ، فقيه ، أندلسي ، عارف بالأحكام والحديث . توفي سنة ( ٥٤٢ ) ، له « المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز » طبع منه جزءان في المغرب .

أما الإيماء فهو في مبادرة الصحابة لما سمعوا نداءه ﷺ لموتى القليب بقولهم : « ما تُكلِّم أجساداً لا أرواح فيها » ، فإن في رواية أخرى عن أنس نحوه بلفظ «قالوا» ، بدل : « قال عمر » كما سيأتي في الكتاب (ص ٣٠ ـ ٣٣)، فلولا أنهم كانوا على علم بذلك سابق تلقوه منه ﷺ ، ما كان لهم أن يبادروه بذلك . وهب أنهم تسرعوا ، وأنكروا بغير علم سابق ، فواجب التبليغ حينئذ يوجب على النبي ﷺ أن يبين لهم أن اعتقادهم هذا خطأ ؛ وأنه لا أصل له في الشرع ، ولم نر في شيء من روايات الحديث مثل هذا البيان ، وغاية ما قال لهم : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » . وهذا كما ترى - ليس فيه تأسيس قاعدة عامة بالنسبة للموتى جميعاً تخالف اعتقادهم السابق ، وإنما هو إخبار عن أهل القليب خاصة ، على أنه ليس ذلك على إطلاقه بالنسبة إليهم أيضاً إذا تذكرت رواية ابن عمر التي فيها « إنهم الآن يسمعون » كما تقدم شرحه ، فسماعهم إذن خاص بذلك الوقت ، وبما قال لهم النبي ﷺ فقط ، فهي واقعة عين لا عموم لها ، فلا تدل على أنهم يسمعون دائماً أبداً ، وكلَّ ما يقال لهم ، كما لا تشمل غيرهم من الموتى مطلقاً ،

وهذا واضح إن شاء الله تعالى . ويزيده وضوحاً ما يأتي .

وأما الصراحة فهي فيما رواه أحمد ( ٢٨٧/٣ ) من حديث أنس رضي الله عنه قال : « .... فسمع عمر صوته ، فقال: يارسول الله أتناديهم بعد ثلاث ؟ وهل يسمعون ؟ **يقول الله عز وجل : ( إنك لاتسمع الموتى ) ،** فقال : والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع [ لما أقول ] منهم ، ولكنهم لايستطيعون أن يجيبوا » . وسنده صحيح على شرط مسلم .[١] فقد صرح عمر رضي الله عنه أن الآية المذكورة هي العمدة في تلك المبادرة ، وأنهم فهموا من عمومها دخول أهل القليب فيه ، ولذلك أشكل عليهم الأمر ، فصارحوا النبي ﷺ بذلك ليزيل إشكالهم ؟ وكان ذلك ببيانه المتقدم .

ومنه يتضح أن النبي ﷺ أقر الصحابة - وفي مقدمتهم عمر - على فهمهم للآية على ذلك الوجه العام

---

(١) وأصله عنده ( ١٦٣/٨ - ١٦٤ ) والزيادة له ، وهو رواية لأحمد (٢١٩/٣ - ٢٢٠ ) ، والحديث عزاه في « الدر » ( ١٥٧/٥ ) لمسلم وابن مردويه ! وكأنه يعني أن أصله لمسلم ، وسياقه لابن مردويه ، ولا يخفى مافيه من إيهام وتقصير !!

الشامل لموتى القليب وغيرهم؛ لأنه لم ينكره عليهم ، ولا قال لهم : أخطأتم فالآية لا تنفي مطلقاً سماع الموتى ، بل إنه أقرهم على ذلك ، ولكن بين لهم ما كان خافياً عليهم من شأن القليب ، وأنهم سمعوا كلامه حقاً ، وأن ذلك أمر خاص مستثنى من الآية ، معجزة له ﷺ كما سبق .

هذا ، وإن مما يحسن التنبيه عليه ، وإرشاد الأريب إليه أن استدلال عائشة المتقدم بالآية يشبه تماماً استدلال عمر بها ، فلا وجه لتخطئتها اليوم بعد تبيُّن إقرار النبي ﷺ لعمر عليه ، اللهم إلا في ردها على ابن عمر في روايته لقصة القليب بلفظ السماع وتوهيمها إياه ، فقد تبين من اتفاق جماعة من الصحابة على روايتها كروايته هو ، أنها هي الواهمة ، وإن كان من الممكن الجمع بين روايتهم وروايتها، كما سيأتي بيانه في التعليق على «الرسالة» ( ص ٧ ـ ٨ ) ، فخطؤها ليس في الاستدلال بالآية ، وإنما في خفاءِ القصة عليها على حقيقتها ، ولولا ذلك لكان موقفها موقف سائر الصحابة منها ، ألا وهو الموقف الجازم بها ، على ما أخبر به النبي ﷺ ، واعتبارها مستثناة من الآية .

فتنبه لهذا واعلم أن من الفقه الدقيق الاعتناء بتتبع

ما أقرَّه النبي ﷺ من الأمور ، والاحتجاج به ، لأن إقراره ﷺ حق كما هو معلوم ، وإلا فبدون ذلك قد يضل الفهم عن الصواب في كثير من النصوص . ولا نذهب بك بعيداً ، فهذا هو الشاهد بين يديك ، فقد اعتاد كثير من المؤلفين وغيرهم أن يستدلوا بهذا الحديث - حديث القليب - على أن الموتى يسمعون متمسكين بظاهر قوله ﷺ : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » ، غير منتبهين لإقراره ﷺ الصحابة على اعتقادهم بأن الموتى لا يسمعون وأنه لم يَردَّه عليهم ، إلا باستثناء أهل القليب منه ، معجزة له ﷺ ، فعاد الحديث بالتنبه لما ذكرنا حجة على أن الموتى لا يسمعون ، وأن هذا هو الأصل . فلا يجوز الخروج عنه إلا بنص ، كما هو الشأن في كل نص عام . والله تعالى الموفق .

وقد يجد الباحث من هذا النوع أمثلة كثيرة ، ولعله من المفيد أن أذكر هنا ما يحضرني الآن من ذلك ، وهما مثالان :

**الأول** : حديث جابر عن أم مبشر رضي الله عنها أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة : « لا يدخل

النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد من الذين بايعوا تحتها » . قالت : بلى يارسول الله ! فانتهرها . فقالت حفصة : ( وإن منكم إلا واردها ) ، فقال النبي ﷺ : « قد قال الله عز وجل : ( ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً ) » .

رواه مسلم وغيره ، وهو مخرج في « الصحيحة » ( ٢١٦٠ ) و « تخريج السنة » ( ٨٦٠ ) .

أقول : ففي استدلال السيدة حفصة رضي الله عنها بآية الورود دليل على أنها فهمت ( الورود ) بمعنى الدخول ، وأنه عام لجميع الناس ؛ الصالح والطالح منهم ، ولذلك أشكل عليها نفي النبي ﷺ دخول النار في حق أصحاب الشجرة ، فأزال ﷺ إشكالها بأن ذكَّرها بتمام الآية : ( ثم ننجي الذين اتقوا ) ، ففيه أنه ﷺ أقرها على فهمها المذكور ، وأنه على ذلك أجابها بما خلاصته أن الدخول المنفي في الحديث هو غير الدخول المثبت في الآية ، وأن الأول خاص بالصالحين ومنهم أهل الشجرة ، والمراد به نفي العذاب ، أي إنهم يدخلونها مروراً إلى الجنة دون أن تمسهم بعذاب ، والدخول الآخر عام لجميع الناس ، ثم هم فريقان : منهم من تمسه بعذاب ، ومنهم على خلاف ذلك ، وهذا ماوضحته الآية نفسها في

تمامها . وراجع لهذا « مبارق الأزهار» ( ٢٥٠/١ ) و « مرقاة المفاتيح » ( ٦٢١/٥ _ ٦٣٢ ) .

قلت : فاستفدنا من الإقرار المذكور في الحديث حكماً لولاه لم نهتد إلى وجه الصواب في الآية ، وهو أن الورود فيها بمعنى الدخول، وأنه لجميع الناس ، ولكنها بالنسبة للصالحين لاتضرهم ، بل تكون عليهم برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم ، وقد روي هذا صراحة مرفوعاً في حديث آخر لجابر ، لكن استغربه الحافظ ابن كثير ، وبينت علته في « الأحاديث الضعيفة » ( ٤٧٦١ ) . لكن حديثه هذا عن أم مبشر يدل على صحة معناه ، وقد مال إليه العلامة الشوكاني في تفسيره للآية (٣٣٣/٣ ) ، واستظهره من قبله القرطبي (١٣٨/١١ ١٣٩) وهو المعتمد .

**والآخر** : حديث « الصحيحين » ،والسياق للبخاري، نقلاً من « مختصر البخاري » بقلمي لأنه أتم ، جمعت فيه فوائده وزوائده من مختلف مواضعه ، قالت عائشة :

« دخل علي رسول الله ﷺ وعندي جاريتان [ من جواري الأنصار ٣/٢ ] ( وفي رواية : قينتان ٢٦٦/٤ ) [ في أيام مِنى ، تُدَفِّفان وتضربان ١٦١/٤ ] تغنيان بغناء

( وفي رواية : بما تقاولت ( وفي أخرى تقاذفت ) الأنصار يومَ ) بُعاثٍ : [1] [ وليستا بمغنِّيتَيْن ] ، فاضطجع على الفراش ، وحول وجهه ، ودخل أبو بكرٍ [ والنبي ﷺ مُتَغشٍّ بثوبه ٢/١١ ] ، فانْتهرني، ) وفي رواية : فانتهرهما ) وقال : مِزمارةُ ( وفي رواية : مزمارُ ) الشيطان عند ( وفي رواية : أمزاميرُ الشيطان في بيت ) رسولِ اللهِ ﷺ [ ( مرتين ) ] ؟ ! فاقبل عليه رسول الله ﷺ ( وفي رواية : فكشف النبي ﷺ عن وجهه ) فقال : « دعهما [ يا أبا بكر ! [ فـ ] إن لكل قوم عيداً ، وهذا عيدنا ] » . فلما غفل غمزتها ، فخرجتا » . ( رقم ٥٠٨ من « المختصر » ) .

قلت : فنجد في هذا الحديث أن النبي ﷺ لم ينكر قول أبي بكر الصديق في الغناء بالدف أنه « مزمار الشيطان»، ولا نَهْرَه لابنته ، أو للجاريتين ، بل أقره على ذلك ، فدل إقراره إياه على أن ذلك معروف وليس بمنكر ، فمن أين جاء أبو بكر بذلك ؟ الجواب : جاء به من تعاليم النبي ﷺ وأحاديثه الكثيرة في تحريم الغناء وآلات الطرب ،

---

(١) بالصرف وعدمه ، وهو اسم حصن ، وقع الحرب عنده بين الأوس والخزرج قبل الهجرة بثلاث سنين .

وقد ذكر طائفة منها العلامة ابن قيم الجوزية في كتابه « إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان » ( ١/٢٥٨ ـ ٢٦٧ ) ، وخرجت بعضها في « الصحيحة » ( ٩١ ) و « المشكاة » ( ٣٦٥٢ ) ، ولولا علم أبي بكر بذلك وكونه على بينة من الأمر ما كان له أن يتقدم بين يدي النبي ﷺ وفي بيته بمثل هذا الإنكار الشديد ، غير أنه كان خافياً عليه أن هذا الذي أنكره يجوز في يوم عيد ، فبينه له النبي ﷺ بقوله : « دعهما يا أبا بكر ، فإن لكل قوم عيداً ، وهذا عيدنا » ، فبقي إنكار أبي بكر العام مسلماً به لإقراره ﷺ إياه ولكنه استثنى منه الغناء في العيد ، فهو مباح ، بالمواصفات الواردة في هذا الحديث .

فتبين أنه ﷺ كما أقر عمر على استنكاره سماع الموتى ، كذلك أقر أبا بكر على استنكاره مزمار الشيطان ، وكما أنه أدخل على الأول تخصيصاً ، كذلك أدخل على قول أبي بكر هذا تخصيصاً اقتضى إباحة الغناء المذكور في يوم العيد ، ومن غفل عن ملاحظة الإقرار الذي بينا أخذ من الحديث الإباحة في كل الأيام كما يحلو ذلك لبعض الكتاب المعاصرين ، وسلفهم فيه ابن حزم ؛ فإنه استدل به

على الإباحة مطلقاً جموداً منه على الظاهر ؛ فإنه قال في رسالته في الملاهي ( ص ٩٨ ـ ٩٩ ) :

« وقد سمع رسول الله ﷺ قول أبي بكر : « مزمار الشيطان » فأنكر عليه ، ولم ينكر على الجاريتين غناءهما » .

والواقع أنه ليس في كل روايات الحديث الإنكار المذكور ، وإنما فيه قوله ﷺ لأبي بكر : « دعهما ... » وفرق كبير بين الأمرين ، فإن الإنكار الأول لو وقع لشمل الآخر ، ولا عكس كما هو ظاهر ، بل نقول زيادة على ذلك : إن النبي ﷺ أقر قول أبي بكر المذكور كما سبق بيانه ، وقد قال ابن القيم في «إغاثة اللهفان» بعد أن ذكر الحديث (٢٥٧/١) :

« فلم ينكر رسول الله ﷺ على أبي بكر تسمية الغناء مزمار الشيطان ، وأقرهما ، لأنهما جاريتان غير مكلفتين تغنيان بغناء الأعراب الذي قيل في يوم حرب بعاث من الشجاعة والحرب ، وكان اليوم يوم عيد » .

وأما أنه ﷺ لم ينكر على الجاريتين فحق ، ولكن كان ذلك في يوم عيد فلا يشمل غيره أولاً . وثانياً : لما أمر ﷺ أبا بكر بأن لا ينكر عليهما بقوله : « دعهما » ، أتبع ذلك بقوله : « فإن لكل قوم عيداً ... » فهذه جملة تعليلية

تدل على أن علة الإباحة هي العيدية إذا صح التعبير ، ومن المعلوم أن العلة تدور مع المعلول وجوداً وعدماً ، فإذا انتفت هذه العلة بأن لم يكن يوم عيد ، لم يُبَح الغناء فيه كما هو ظاهر ، ولكن ابن حزم لعله لا يقول بدليل العلة ، كما عرف عنه أنه لايقول بدليل الخطاب ، وقد رد عليه العلماء ، ولاسيما شيخ الإسلام ابن تيمية في غير ما موضع من « مجموع الفتاوى » فراجع المجلد الثاني من « فهرسه » .

لقد طال الكلام على حديث عائشة في سماع الغناء، ولا بأس من ذلك إن شاءَ الله تعالى ، فإن الشاهد منه واضح ومُهم ، وهو أن ملاحظة طالب العلم إقرار النبي ﷺ لأمر ما يفتح عليه باباً من الفقه والفهم ما كان ليصل إليه بدونها . وهكذا كان الأمر في حديث القليب ، فقد تبين مما سبق أنه دليل صريح على أن الموتى لايسمعون ، وذلك من ملاحظتنا إقرار النبي ﷺ لاستنكار عمر سماعَهم واستدلاله عليه بالآية ، ( إنك لاتسمع الموتى ) ، فلا يجوز لأحد بعد هذا أن يَلتفتَ إلى أقوال المخالفين القائلين بأن الموتى يسمعون ، فإنه خلاف القرآن الذي بينه الرسول عليه الصلاة والسلام .

**الدليل الرابع :**

قول النبي ﷺ : «إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام»[(١)].

أقول : ووجه الاستدلال به أنه صريح في أن النبي ﷺ لايسمع سلام المسلمين عليه ، إذ لو كان يسمعه بنفسه ، لما كان بحاجة إلى من يبلغه إليه ، كما هو ظاهر لا يخفى على أحد إن شاء الله تعالى . وإذا كان الأمر كذلك، فبالأولى أنه ﷺ لايسمع غير السلام من الكلام ، وإذا كان كذلك فلأن لايسمع السلام غيرُه من الموتى أولى وأحرى .

ثم إن الحديث مطلق يشمل حتى من سلم عليه ﷺ عند قبره ، ولا دليل يصرح بالتفريق بينه وبين من صلى عليه بعيداً عنه ، والحديث المروي في ذلك موضوع كما سيأتي بيانه في التعليق (ص ٤٤) .

وهذا الاستدلال لم أره لأحد قبلي ، فإذا كان صواباً ـ كما أرجو ـ فهو فضل من الله ونعمة ، وإن كان خطأً فهو من نفسي ، والله تعالى أسأل أن يغفره لي وسائر ذنوبي .

---

(١) وهو حديث صحيح ، انظر التعليق الآتي (ص ٤٣) .

**أدلة المخالفين :**

فإن قيل : يظهر من النقول التي ستأتي في الرسالة عن العلماء ، أن المسألة خلافية ، فلابد أن للمخالفين فيها أدلةً استندوا إليها .

فأقول : لم أر فيها من صرح بأن الميت يسمع سماعاً مطلقاً عاماً ، كما كان شأنه في حياته ، ولا أظن عالماً يقول به ، وإنما رأيت بعضهم يستدل بأدلة يثبت بها سماعاً لهم في الجملة ، وأقوى ما استدلوا به سنداً ، حديثان :

**الأول** : حديث قليب بدر المتقدم ، وقد عرفت مما سبق بيانه أنه خاص بأهل القليب من جهة ، وأنه دليل على أن الأصل في الموتى أنهم لايسمعون من جهة أخرى ، وأن سماعهم كان خرقاً للعادة ، فلا داعي للاعادة .

**والآخر** : حديث : « إن الميت ليسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا » . وفي رواية « إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه ، وإنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان ... » الحديث . (انظر ص ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ٤٦ ) من « الآيات »

وهذا كما ترى خاص بوقت وضعه في قبره ومجيء الملكين إليه لسؤاله ، فلا عموم فيه ، وعلى ذلك حمله

العلماء كابن الهمام وغيره كما سيأتي في « الآيات » ( ص ١٠ ، ١٦ ، ٣٤ ) .

ولهم من هذا النوع أدلة أخرى ، ولكن لا تصح أسانيدها ، وفي أحدها التصريح بأن الموتى يسمعون السلام عليهم من الزائر ! وسائرها ليس فيها السماع ، وبعضها خاص بشهداء أحد ، وكلها ضعيفة ، وبعضها أشد ضعفاً من بعض ، كما ستراه في التعليق ( ص ٢٧ ، ٢٨ ) .

وأغرب ما رأيت لهم من الأدلة ، قول ابن القيم رحمه الله في ( الروح » ص ٨ ) تحت المسألة الاولى : هل تعرف الأموات زيارة الأحياء وسلامهم أم لا ؟ فأجاب بكلام طويل جاء فيه ما نصه :

« ويكفي في هذا تسمية المسلم عليهم زائراً ، ولولا أنهم يشعرون به لما صح تسميته زائراً ، فإن المزور إن لم يعلم بزيارة من زاره لم يصح أن يقال : زاره، (!) هذا هو المعقول من الزيارة عند جميع الأمم ، وكذلك السلام عليهم أيضاً ، فإن السلام على من لا يشعر ولا يعلم بالمسلِّم محال (!) وقد علَّم النبي ﷺ أمته إذا زاروا القبور أن يقولوا : سلام عليكم أهل الديار .... » ، وهذا السلام

والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ، ويعقل ويرد، وإن لم يسمع المسلِّم الرد » .

أقول وبالله تعالى التوفيق :

رحم الله ابن القيم ، فما كان أغناه عن الدخول في مثل هذا **الاستدلال** العقلي ، الذي لامجال له في أمر غيبي كهذا ، فوالله لو أن ناقلاً نقل هذا الكلام عنه ولم أقف أنا بنفسي عليه لما صدقته لغرابته ، وبعده عن الأصول العلمية ، والقواعد السلفية ، التي تعلمناها منه ومن شيخه الإمام ابن تيمية ، فهو أشبه شيء بكلام الآرائيين والقياسيين ، الذين يقيسون الغائب على الشاهد ، والخالق على المخلوق ، وهو قياس باطل فاسد ، طالما ردّ ابن القيم أمثاله على أهل الكلام والبدع . ولهذا وغيره فإني في شك كبير من صحة نسبة « الروح » إليه ، أو لعله ألفه في أول طلبه للعلم . والله أعلم .

ثم إن كلامه مردود في شطريه بأمرين :

**الأول** : ماثبت في « الصحيح » أن النبي ﷺ كان يزور البيت في الحج ، وأنه كان وهو في المدينة يزور قباء راكباً وماشياً ، ومن المعلوم تسمية طواف الإفاضة بطواف الزيارة . فهل من أحد يقول : بأن البيت وقباء يشعر

كل منهما بزيارة الزائر ، أوأنه يعلم بزيارته ؟!

**وأما الآخر :** فهو مخاطبة الصحابة للنبي ﷺ في تشهد الصلاة بقولهم : « السلام عليك أيها النبي ... » وهم خلفه ، قريباً منه ، وبعيداً عنه ، في مسجده وفي غير مسجده ، أفيقال : إنه كان يسمعهم ويشعر بهم حين يخاطبونه به ، وإلا فالسلام عليه محال ؟! اللهم غفراً . وانظر التعليق الآتي على الصفحة ( ٦٨ ـ ٦٩ ) .

وإذا كان لايسمع هذا الخطاب في قيد حياته ، أفيسمعه بعد وفاته ، وهو في الرفيق الأعلى ، لاسيا وقد ثبت أنه يبلغه ولا يسمعه كما سبق بيانه في الدليل الرابع ( ص ٥٠ ) ؟ .

ويكفى في رد ذلك أن يقال : إنه استدلال مبني على الاستنباط والنظر ، فمثله قد يمكن الاعتداد به ، إذا لم يكن مخالفاً للنص والأثر ، فكيف وهو مخالف لنصوص عدة ، واحد منها فقط فيه كفاية وغنية ، كما سلف ، وبخاصة منها حديث قليب بدر ، وفيه إقرار النبي ﷺ لعمر أن الموتى لا يسمعون ، فلا قيمة إذن للاستنباط المذكور ، فإن الأمر كما قيل : « إذا جاء الأثر بطل النظر ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل » .

وقد يتساءل القارىء ـ بعد هذا ـ عن وجه مخاطبة الموتى بالسلام وهم لايسمعونه ؟ وفي الإجابة عنه أُحيل القارىء إلى ما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى فيما يأتي من الرسالة وما علقته عليها ( ص ٦٧ ـ ٦٩ ) ؛ فإن في ذلك كفاية ، وغنية عن الإعادة .

**وخلاصة البحث والتحقيق** : أَن الأَدلة من الكتاب والسنة وأقوال أئمة الحنفية وغيرهم ـ كما ستراه في الكتاب مبسوطاً ـ على أن الموتى لايسمعون ، وأن هذا هو الأصل ، فإذا ثبت أنهم يسمعون في بعض الأَحوال ، كما في حديث خفق النعال ، أو أَن بعضهم سمع في وقت ما كما في حديث القليب ، فلا ينبغي أن يجعل ذلك أصلاً ، فيقال إن الموتى يسمعون كما فعل بعضهم ،[1] كلا ، فإنها قضايا جزئية ، لاتشكل قاعدة كلية ، يعارض بها الأصل المذكور ، بل الحق أنه يجب أن تستثنى منه ، على قاعدة استثناء الأقل من الأكثر ، أو الخاص من العام ، كما هو المقرر في علم أُصول الفقه ، ولذلك قال العلامة الألوسي في « روح المعاني » بعد بحث مستفيض في هذه المسألة (٦/٤٥٥) :

---

(١) انظر « الأضواء » (٦/٤٢٥) .

« والحق أن الموتى يسمعون في الجملة ، فيقتصر على القول بسماع ما ورد السمع بسماعه » .

وهذا مذهب طوائف من أهل العلم كما قال الحافظ ابن رجب الحنبلي على ما سيأتي في الرسالة ( ص ٢٦ ) ، وما أحسن ما قاله ابن التين رحمه الله :

« إن الموتى لايسمعون بلاشك ، لكن إذا أراد الله تعالى إسماع ما ليس من شأنه السماع لم يمتنع ، لقوله تعالى : ( إنا عرضنا الأمانة ) ، الآية ، وقوله : ( فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها ) » ، الآية. كما نقله المؤلف فيما يأتي ( ص ٣١ ) .

فإذا علمت أيها القارىء الكريم! أن الموتى لايسمعون، فقد تبين أنه لم يبق هناك مجال لمناداتهم من دون الله تعالى ، ولو بطلب ما كانوا قادرين عليه وهم أحياء ، كما تقدم بيانه في ( ص ١٩ــ٢٦ ) ، بحكم كونهم لايسمعون النداء ، وأن مناداة من كان كذلك والطلب منه سخافة في العقل ، وضلال في الدين ، وصدق الله العظيم القائل في كتابه الكريم: ( ومن أضلّ ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يومِ القيامةِ وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حُشرَ الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين) . (الأحقاف ٥ ـ ٦ )

هذا ، ولما كان الواقع يشهد أنه لايزال في هؤلاء المبتلين بنداء الموتى ، والاستغاثة بهم من دون الله تعالى ، من يرجو الدار الآخرة ، ويحرص على معرفة الحق واتباعه إذا تبين له ، اقتطعت من وقتي الضيق ما مكنني من التعليق على هذه الرسالة النافعة إن شاء الله تعالى ، وتحقيقها ، وتخريج أحاديثها ، ووضع هذه المقدمة بين يديها ، راجياً من المولى سبحانه وتعالى أن ينفع بها المخلصين من المسلمين، ويجلعنا وإياهم من (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب).(الزمر ١٨)۔

دمشق ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٩٨ هـ .

وكتب

محمد ناصر الدين الألباني

## ترجمة المؤلف :[1]

هو السيد الشريف نعمان خير الدين أبو البركات نجل العلامة المفسر السيد شهاب الدين محمود ، ابن السيد عبد الله الألوسي البغدادي ، ينتهي نسبه من جهة الأب إلى الحسين ، ومن جهة الأم إلى الحسن رضي الله عنهما ، من طريق الشيخ السيد عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى.

ولد رحمه الله في محرم سنة (١٢٥٢) في أرض التعصب الأعمى والجمود الذميم ، قال الأثري : « ولكنه نشأ بفطرته حر الضمير ، نير البصيرة ، ورُبي على الآداب الاسلامية الفاضلة ، ولولا أن يتيح الله له من ينمي فيه قوة الاستعداد ، ويربي في الجملة ملكة الاستقلال فيه ، (وهو أبوه ، وتلميذه العالم السلفي السيد أمين الواعظ) لغلبه جمود البيئة ، واستحوذ عليه الخمول ، على أنه لم يسلم من العدوى كل السلامة ، فظهر في بعض مؤلفاته : « غالية المواعظ » و « الإصابة في منع النساء من الكتابة » ، ولكن حسب من نشأ في هذه البلاد في تلك الأيام الحالكة

---

(١) لخصتها من « التاج المكلل » ، و « مجلة المنار » ، و « الأعلام » ، و « أعلام العراق » .

فخراً أن يكون مثل السيد نعمان في استقلاله واعتداله، وجرأته على الدعوة و مجاهدة فريق الجمود والتقليد» .

تولى في شبابه القضاء ، في بلاد متعددة ، سار فيها سيرة حميدة ، ثم ترك المناصب ، وتفـــرغ للتدريس والتأليف ، وزار مصر في طريقه إلى الحج ، وقصد الآستانة ( استانبول) سنة (١٣٠٠) ومكث سنتين ، ثم عاد يحمل لقب« رئيس المدرسين» ، فعكف على التدريس ، إلى أن مات .

وله آثار نافعة ، أجلها « جلاء العينين في محاكمة الأحمدين » ، يعني الإمام شيخ الإسـلام أحمـد بن تيمية ، والفقيه أحمد بن حجر الهيتمي الفقيه الشـافعي ، وقـد وصفه العلامة السيد صديق حسن خان بقوله :

« وهو كتاب جليل المقدار ، مفيد الأحرار ، يعزله مثيل ، بل لا يُلفى له بديل » .

وكانت بينه وبين السيد صديق مراسلات ومفاوضات، وله منه إجازة

وكان رحمه الله جوزيَّ زمانه في الوعظ والتذكير ، فكان في كل سنة يجلس في شهر رمضان للوعظ في أحـد المساجد الواسعة ، فيقصد من أطراف البلد ، حتى يغص المكان بالمستمعين ، فاتفق له ( في رمضان سنـة ١٣٠٥ ) أن

استطرد في مجلس من مجالسه بحث سماع الموتى ، فذكر ما قاله الحنفية فى كتبهم الفقهية ، من عدم سماع الموتى كلام الأحياء ، فقام حشوية بغداد وقعدوا ، وأنكروا عليه هذا العزو ، وأثاروا أفراد جهلة العوام - كما هي عادتهم في كل زمان ومكان - وكادت تقع فتنة تسود وجه التاريخ ، ولكنه بدهائه وحلمه سكن ثائرتهم ، فجمع في اليوم الثاني كل مالديه من كتب المذاهب الأربعة ، وارتقى كرسي الوعظ - وقد احتشدت الجموع - فأعاد البحث ، وصدع بالبيان ، ثم أخذ يتناول كتاباً كتاباً ، فيتلو نصوص العلماء ، ثم يرمي بها إلى المستمعين ويصرخ : هؤلاءِ علماؤكم ، فإن كنم في ريب منهم فدونكموهم وناقشوهم الحساب ! حتى إذا فرغ ، نهض واخترق الجموع الثائرة ، غير وجل ولا هياب ، فأقبلوا عليه يقبلون يديه ، و يعتذرون إليه من قيامهم بتحريك المرجفين من فريق المقلدة والجامدين ، فكان ذلك سبب تأليفه لهذه الرسالة ، وقد أشار إلى ذلك في مقدمتها .

وهكذا أمضى عمره بالتدريس والوعظ والتأليف ، إلى أن جاءه اليقين صبيحة الأربعاء السابع من المحرم سنة ١٣١٧ ، رحمه الله .

الحاسد فيلي لضوء الشمس جاحد، إذ لم يبق والفضل لله سبحانه
مجال لإنكار الكابرين ولا حجة بعد هذا للمتعنتين، فنخص
المطلعين، فلنكتف بهذا المقدار لئلا يطول الكتاب على ذوي
الأنظار، ويكفي الكلام في رأي سعديد من القلادة ما أحاط بالجيد،
لا سيما وقد تكفلت بتفصيل هذه المسائل كتب العلماء المتقدمين،
والأئمة المحققين الأفاضل، والله سبحانه الهادي للحق والصواب
والمسمع للجماد كلام الأحياء إذا شاء، كما أسمع بسارية كلام أمير المؤمنين
عمر بن الخطاب. والحمد لله رب العالمين، وصلواته وسلامه على
جميع الأنبياء والمرسلين، وعلى أشرفهم نبينا محمد وآله وصحبه
أجمعين الطيبين الطاهرين. وقد كملت هذه الرسالة تأليف
شيخنا العلامة الحبر البحر الفهامة فريد عصره ووحيد
مصره مؤيد سنة سيد المرسلين وقامع المبتدعين
خاتمة المحققين مولانا السيد نعمان خير
الدين أفندي الآلوسي زاده رئيس المدرسين
ببغداد حماه الله تعالى من كيد
الحساد وأدام به نفع
العباد آمين.

في ١٢٧٥ م

٨ ربيع الثاني

العالمين، وصلوة وسلام على جميع الانبياء والمرسلين وعلى اشرفهم نبينا
محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين. وقد كملت هذه الرسالة
تاليفا بتوفيقه جل وعز في يوم من سلخ شوال المكرم لسنة خمس
وثلثمائة والف على يد افقر العباد واحوجهم
الى الله تعالى صالح نجل المرحوم ملا حيدر
عفى الله تعالى عنه وعن والديه
والمسلمين آمين
تمت

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا ابراهيم وعلى آل سيدنا ابراهيم في العالمين انك حميد مجيد

عورضت هذه الرسالة الشريفة بتمامها على خط مؤلفها نعمان [illegible]
افندي المفضال في [illegible] لعشرين من شوال [illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين وصلوته
وسلامه على خاتم النبيين وآله
وصحبه اجمعين اما بعد فقد سمع هذه
الرسالة على ولدي القلبي الحسيب
النسيب السيد عبد الرزاق افندي
الاعظمي واجزته ان يرويها
وانا العبد الفقير الى الله سبحانه نعمان
بن المبرور السيد محمود افندي
المفتي الالوسي البغدادي

نال الابن الاشرف
نهاية الشجب
[illegible] بالسكون
[illegible] الشفا اذا
[illegible] بلى وهون
[illegible] النجب الالات
والشاجب
[illegible] الهالك والناطق
بالخنا [illegible]
على الاعلم [illegible]

تنظر بعين الحاسد، فتلفى لضوء الشمس جاحد، اذ
لم يبق والفضل لله سبحانه مجال لانكار المكابرين
ولا حجة بعد هذا للمعاندين وغير المجادلين،
فلنكتف بهذا المقدار لئلا يطول الكتاب على ذوى
الانظار، ويكفي لكل راى سديد، من الفائدة ما
احاط بالجيد، لاسيما وقد تكفلت بهذه المسائل
كتب العلماء المتقدمين والائمة المحققين الافاضل
والله سبحانه الهادى الى صوب الصواب، ويسمع
الجماد كلام الاحياء اذا شاء، كما اسمع سارية
كلام امير المؤمنين عمر بن الخطاب، والحمد لله رب
العالمين، وصلوته وسلامه على جميع الانبياء، و
المرسلين، وعلى اشرفهم نبينا محمد وآله الطيبين
الطاهرين، وقد كملت هذه الرسالة تأليفا
بتوفيقه عز وجل في يومين لسبع من شوال المكرم لسنة
خمس وثلثمائة والف، وكان الفراغ من تحرير هذه
النسخة يوم الاربعاء لسبع مضين
من ربيع الثاني لسنة احدى
عشر وثلثمائة و
الف
على يد الفقير اليه تعالى شانه على بن حسن الالبرى اعفى عنهم اجمعين

بلغ مقابلة بحضور مؤلفه
نعمان خير الدين عفي عنه
١٣١٢